الباب السادس والثلاثون

فى فضيلة الصلاة وكبر شأنها

روى عن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله تعالى جنة عدن وخلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها: تكلّمى، فقالت ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1] ثلاثًا».

وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين، وقال رسول ﷺ: «أتانى جبرائيل لدلوك الشمس حين زالت وصلّى بى الظهر»[2].

واشتقاق الصلاة: قيل: من «الصلى» وهو النار، والخشبة المعّوجة إذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوّم، وفى العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمّارة بالسوء، وسبحات وجه الله الكريم التى لو كشف حجابها لأحرقت من أدركته: يصيب بها المصلى من وهج السطوة الإلهية والعظمة الربانية ما يزول به إعوجاجه، بل يتحقق به معراجه؛ فالمصلى كالمصطلى بالنار، ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لا يعرض على نار جهنم إلاّ تحلّة القسم. أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة قال: أخبرنا أبو سعيد محمد بن أبى العباس بن محمد بن أبى العباس الخليلى، قال: أخبرنا أبو سعيد الفرخزاذى قال: أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد قال: أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن قال: أخبرنا أبو زكريا يحيى بن محمد العنبرى قال: حدثنا جعفر بن أحمد بن الحافظ قال: أخبرنا أحمد بن نصير قال: حدثنا آدم بن أبى إياس، عن ابن سمعان، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين؛ فإذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم. قال الله عزّ وجل: مجدّنى عبدى، فإذا قال: الحمد لله رب العالمين: قال الله تعالى: حمدنى عبدى. فإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علىّ عبدى، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال: فوّض إلىّ عبدى. فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين: قال: هذا بينى وبين عبدى، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال الله تعالى: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل».

---

(١) من سورة المؤمنون الآيتان الأولى والثانية.

(٢) متفق عليه

فالصلاة صلة بين الربّ والعبد، وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعًا لصولة الربوبية على العبودية.

وقد ورد أن الله تعالى إذا تجلّى لشيء خضع له، ومن يتحقق بالصلة في الصلاة تلمع له طوالع التجلىّ فيخشع، والفلاح للذين هم في صلاتهم خاشعون. وبانتفاء الخشوع ينتفى الفلاح.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى﴾[١] وإذا كانت الصلاة للذكر كيف يقع فيها النسيان؟

قال الله تعالى: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وأَنْتم سكَارَى حَتَّى تَعلَموا مَا تَقولُون﴾[٢] فمن قال ولايعلم ما يقول كيف يصلى وقد نهاه الله عن ذلك؟ فالسكران يقول الشيء لا بحضور عقل، والغافل يصلى لا بحضور عقل؛ فهو كالسكران.

وقيل في غرائب التفسير في قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بَالْوَادِى الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٣] قيل: نعليك: هَمك بامرأتك، وغمك؛ فالاهتمام بغير الله تعالى سكر في الصلاة.

وقيل: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة وينظرون يمينًا وشمالاً. فلما نزلت: ﴿الَّذِين هُم فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعونَ﴾[٤] جعلوا وجوههم حيث يسجدون، وما مارئى بعد ذلك أحد منهم ينظر إلاّ إلى الأرض.

وروى أبو هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين يدى الرحمن، فإذا التفت قال له الرب: إلى من تلتفت! إلى من هو خير لك منىّ!! ابن آدم أقبل إلىّ فأنا خير لك ممن تلتفت إليه»[٥].

وأبصر رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا صليت فصل صلاة مودّع».

---

(١) آية رقم ١٤ من سورة طه.

(٢) آية رقم ٤٣ من سورة النساء.

(٣) آية رقم ١٢ من سورة طه.

(٤) آية ٢: سورة المؤمنون.

(٥) متفق عليه.

فالمصلى سائر إلى الله تعالى بقلبه يودّع هواه، ودنياه، وكلّ شيء سواه.

والصلاة في اللغة: هي: الدعاء؛ فكأن المصلّي يدعو الله تعالى بجميع جوارحه فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعو بها ظاهرًا وباطنًا، ويشارك الظاهر الباطن بالتضرّع والتقلّب والهيئات في تملقات متضرع سائل محتاج؛ فإذا دعا بكليته أجابه مولاه؛ لأنه وعد فقال: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] وكان خالد الربعي يقول: عجبت لهذه الآية: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ليس بينهما شرط.

والاستجابة، والإجابة: هي نفوذ دعاء العبد؛ فإن الداعَي الصادق العالمَ بمن يدعوه بنور يقينه، فتخرق الحجب وتقف الدعوة بين يدي الله تعالى متقاضية للحاجة.

وخصّ الله تعالى هذه الأمة بإنزال فاتحة الكتاب وفيها تقديم الثناء على الدعاء: ليكون أسرع إلى الإجابة وهي تعليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء.

وفاتحة الكتاب هي: السبع المثاني والقرآن العظيم.

قيل: سميت مثاني؛ لأنها نزلت على رسول الله ﷺ مرّتين: مرة بمكة، ومرّة بالمدينة.

وكان لرسول الله ﷺ بكل مرّة نزلت منها فَهمٌ آخر، بل كان لرسول الله ﷺ بكل مرّة يقرؤها على الترداد مع طول الزمان فهم آخر.

وهكذا المصلون المحققون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها، وتقذف لهم كل مرّة درر بحارها.

وقيل: سميت مثاني؛ لأنها استثنيت من الرسل، وهي سبع آيات.

وردت «أم رومان» قالت: رآني أبو بكر وأنا أتميل في الصلاة، فزجرني زجرًا كدت أن أنصرف عن صلاتي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه، لا يتميّل تميّل اليهود؛ فإن سكون الأطراف من تمام الصلاة»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق»[3] قيل: وما خشوع النفاق؟ قال «خشوع البدن ونفاق القلب».

---

(١) من آية رقم ٦٠ من سورة غافر.

(٢) رواه الترمذي والدارقطني.

(٣) متفق عليه

أما تميّل اليهود، قيل: كان موسى يعامل بنى إسرائيل على ظاهر الأمور، لقلّة ما فى باطنهم؛ فكان يهيئ الأمور ويعظمها، ولهذا المعنى أوحى الله تعالى إليه أن يحلى التوراة بالذهب.

ووقع لى. والله أعلم - أن موسى كان يَردُ عليه الوارد فى صلاته ومحال مناجاته فيموج به باطنه كبحر ساكن تهبُّ عليه الريح فتتلاطم الأمواج. فكان تمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب إذا هبّ عليه نسمات الفضل.

وربمًا كانت الروح تتطلع إلى الحضرة الإلهية، فتهم بالاستعلاء، وللقلب بها تشبك وامتزاج، فيضطرب القالب ويتمايل، فرأى اليهود ظاهره فتمايلوا من غير حظ لبواطنهم من ذلك؛ ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ إنكارًا على أهل الوسوسة: «وهكذا خرجت عظمة الله من قلوب بنى إسرائيل حتى شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم، لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه، وإن الرجل على صلاته دائم ولا يكتب له عشرها إذا كان قلبه ساهيًا لاهيًا».

واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس، وقد قال رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين فمن ترك الصلاة فقد كفر»[1].

فبالصلاة: تحقيق العبودية، وأداء حق الربوبية. وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سرّ الصلاة قال سهل بن عبد الله: يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتكميل الفرائض، ويحتاج إلى النوافل لتكميل السنن، ويحتاج إلى الآداب لتكميل النوافل.

ومن الأدب: ترك الدنيا. والذى ذكره سهل هو معنى ما قال عمر على المنبر: «إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وما أكمل لله صلاة! ! قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله فيها.

وقد ورد فى الأخبار أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه.

وإنّ المصلى لينشر عليه البرّ من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: «لو علم المصلى من يناجى ما التفت» أو ما انفتل.

---

(١) متفق عليه

وقد جمع الله تعالى للمصلّين فى كل ركعة ما فرّق على أهل السموات؛ فلله ملائكة فى الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة، وهكذا فى السجود، والقيام، والقعود.

والعبد المتيقظ يتصف فى ركوعه بصفة الراكعين منهم، وفى السجود بصفة الساجدين، وفى كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم.

وفى غير الفريضة ينبغى للمصلى أن يمكث فى ركوعه متلذذًا بالركوع غير مهتم بالرفع منه، فإن طرقته سآمةٌ بحكم الجبلّة استغفر منها، ويستديم تلك الهيئة، ويتطلّع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ليصير قلبه بلون الهيئة.

وربما يتراءى للراكع المحق أنه إن سبق همه فى حال الركوع أو السجود إلى الرفع منه ما وفىَّ الهيئة حقها، فيكون همّه الهيئة مستغرقًا فيها، مشغولاً بها عن غيرها من الهيئات، فبذلك يتوفّر حظه من بركة كل هيئة؛ فإن السرعة التى يتقاضى بها الطبع تسدّ باب الفتوح ويقف فى مهابّ النفحات الإلهية حتى يتكامل حظّ العبد، فتنمى آثاره بحسن الاسترسال ويستقرّ فى مقعد الوصال.

وقيل: فى الصلاة أربع هيئات وستة أذكار؛ فالهيئات الأربع: القيام، والقعود، والركوع، والسجود. والأذكار الستة: التلاوة والتسبيح، والحمد، والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبى ﷺ، فصارت عشرة كاملة تفرّق هذه العشرة على عشرة صفوف من الملائكة: كل صفّ عشرة آلاف؛ فيجتمع فى الركعتين ما يفرق على مائة ألف من الملائكة.